﴿*وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦﴾ [النِّساء: 36]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الأَمْرُ بالإحسانِ لِعُمومِ النَّاسِ بَعْدَ تَخْصيصِ الزَّوْجاتِ بذلك

لَمَّا كانَ الكَلامُ عَنِ الإرْشادِ إلَى كَيْفيَّةِ مُعامَلَةِ النِّساءِ، والإحْسانِ إلَيْهِنَّ في كُلِّ الأَحْوالِ؛ ناسَبَ بَعْدَها التَّذْكيرُ بحُسْنِ مُعامَلَةِ الخالقِ بالإخْلاصِ لَهُ في الطَّاعَةِ، وثَنَّى بالإحْسانِ إلَى الوالِدَيْنِ، وأَنَّ المُؤْمِنَ لا يَكْتَفي مِنَ التَّكاليفِ الإحْسانيَّةِ بما يَتَعَلَّقُ بزَوْجَتِهِ فقَطْ، بَلْ عَلَيْهِ غَيْرُها مِنْ برِّ الوالِدَيْنِ وغَيْرِهِما، وافْتَتَحَ التَّوَصُّلَ إلَى ذَلِكَ بالأَمْرِ بإفْرادِ اللهِ تَعالَى بالعِبادَةِ؛ إذْ هيَ المَبْدَأُ الأَوَّلُ الَّذي تَتَرَتَّبُ الأَعْمالُ الصَّالِحَةُ عَلَيْهِ[1]، فقال: ﴿*وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، فأَرْشَدَ إلى العِبادَةِ الخالِصَةِ الَّتي هيَ الإحْسانُ في العلاقة بالخالِقِ، ثُمَّ أمر بالإحْسانِ في مُعامَلَةِ الخَلائِقِ، بِصُنوفِ الأَخْلاقِ الحِسانِ، وبذل ما لا بدَّ منه من عوارف الإحسان، فجاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ تحثُّ عَلى ألوانِ البرِّ والملاطفة، للأقارب الأدنين، والأباعد من الجنسين[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ﴾: أَيِ: الغَريبِ الَّذي جاوَرَكَ مِنْ قَوْمٍ آخَرينَ[3]، وأَصْلُ الجِوارِ: المَيْلُ[4]، وسُمِّيَ الجارُ: جارًا؛ لِمَيْلِهِ إلى جارِهِ[5]، وسُمِّيَ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/631.
(2) البِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/275، وابْنُ عادِلٍ الحَنْبليُّ، اللُّبابُ في عُلومِ الكِتاب: 6/369، (بتصرّف).
(3) الرازي، مُخْتارُ الصِّحاحِ، تح: يوسُف محمَّد، المَكْتَبَةُ العَصْريَّةُ، بَيْرُوتُ، صَيْدا، ط05، 1420هـ، ص: 62.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جَوَرَ).
(5) ابْنُ الهائِمِ، التِّبْيانُ في تَفْسيرِ غَريبِ القُرْآنِ، ص: 138.

جُنُبًا لِبُعْدِهِ؛ إِذِ الأَصْلُ في (تَجانَبَ): تَباعَدَ[1]، والمَعْنى هُنا: الجارُ الغَريبُ الَّذي لَيْسَ بَيْنَهُ وبَيْنَ جارِهِ صِلَةُ قَرابَةٍ[2]، والجار الجنب: هو الَّذي يبعد منك، لا قرابة بينك وبينه، و"﴿ٱلْجُنُبِ﴾ البعد، ومنه اجتنب فلان فلانًا إذا بعد منه، ومنه قيل للجنب: جنب لبعده من الطُّهر والصَّلاة حتَّى يغتسل، ومنه قيل: رجل أجنبيٌّ، أي: بعيد غريب، فمعنى ذلك: والجار المجانب للقرابة، أي: البعيد منها"[3].

2) ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾: أَي: المُلازِمِ لِلمَرْءِ، وهوَ: المَرْأَةُ أَوِ الرَّفيقُ في السَّفَرِ[4]، وأَصْلُ صَحِبَ: يَدُلُّ عَلَى مُقارَنَةِ شَيْءٍ ومُقارَبَتِهِ[5]، والمَعنى هُنا: المُنْقَطِعُ إِلى الرَّجُلِ الَّذي يُلازِمُهُ رَجاءَ نَفْعِهِ[6]، و"فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنَّه الرَّفيق في السَّفر، وهو قول ابن عبَّاس، ومجاهد، وقتادة، والثَّاني: أنَّها زوجة الرَّجل الَّتي تكون في جنبه، وهو قول ابن مسعود، والثَّالث: أنَّه الَّذي يلزمك، ويصحبك؛ رجاء نفعك، وهو قول ابن زيد"[7]، وقيل: "والصَّاحب بالجنب، أي: الرَّفيقِ في أمر حسنٍ، كتعلُّم وتصرُّف، وصناعةٍ وسفرٍ، فإنَّه صحِبَك، وحصل بجانبك، ومنهم من قعد بجنبك في مسجد أو مجلسٍ أو غيرِ ذلك، من أدنى صحبةٍ التَأَمَتْ بينك وبينه، وقيل: هي المرأةُ"[8].

3) ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: هو المُسافِرُ البَعيدُ عَنْ مَنْزِلِهِ، والضَّيْفُ[9]، والسَّبيلُ: هوَ الطَّريقُ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِامْتِدادِهِ[10]، والمعنى هُنا: المُسافِرُ والضَّيْفُ المُنْقَطِعُ بِالسَّبيل، وإِنْ كانَ لَهُ مالٌ في بَلَدِهِ، قَالَ الشَّافِعِيُّ (رَحِمَهُ اللّه): ابْنُ السَّبِيلِ الْمُسْتَحِقُّ لِلصَّدَقَةِ، وَهُوَ الَّذِي يُرِيدُ السَّفَرَ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ، فَيَعْجِزُ عَنْ بُلُوغِ سَفَرِهِ إِلَّا بِمَعُونَةٍ[11]، وقيل: ابن السَّبيل اسم جامع

(1) أبو بَكْرٍ الأَنْباريُّ، الزّاهِرُ في مَعاني كَلِماتِ النّاسِ: 1/429.
(2) أبو بَكْرٍ السِّجِستانيُّ، غَريبُ القُرْآنِ، تح: مُحَمَّد أديب جمران، دار قُتَيْبَةَ، سوريا، ط: 1، 1416هـ، ص: 173، وابْنُ الهائِمِ، التِّبْيانُ في تَفْسيرِ غَريبِ القُرْآنِ، ص: 138.
(3) مكيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 2/1321.
(4) ابْنُ الهائِمِ، التِّبْيانُ في تَفْسيرِ غَريبِ القُرْآنِ، ص: 138.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صَحَبَ).
(6) ابْنُ جَريرٍ، جامع البيان: 7/15.
(7) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/485.
(8) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/176.
(9) ابْنُ الجَوْزيِّ، تَذْكِرَة الأَريبِ، ص: 141.
(10) الرازي، مفاتيح الغيب: 16/87.
(11) الرازي، مفاتيح الغيب: 16/87.

جعل للمسافر[1]، وسمِّي: "ابن السَّبيل، كما قيل لطائر يلازم الماء: ابن ماء، ولمن مرَّت عليه دهور: ابن اللَّيالي والأيَّام، وقيل: سمِّي ابن سبيل؛ لأنَّ السَّبيل تبرزه، شُبِّه إبرازها له بالولادة، فأطلقت عليه البنوَّة مجازًا"[2].

4) ﴿مُخْتَالًا﴾: ذو الخُيَلاءِ والكِبْرِ، والمزْهُوُّ المُعْجَبُ بِنَفْسِهِ[3]، فالخُيَلاءُ: الكِبْرُ والعُجْبُ[4]، والمُخْتالُ: مِنْ خالَ الرَّجُلُ، فهوَ خائِلٌ ومُخْتالٌ[5]، وأَصْلُ (خَيَلَ): يَدُلُّ عَلَى حَرَكَةٍ في تَلَوُّنٍ؛ لِأَنَّ المُخْتالَ في مِشْيَتِهِ يَتَلَوَّنُ في حَرَكَتِهِ أَلوانًا[6]، والمَعْنى هُنا: مُتَكَبِّرٌ يَسْتَنْكِفُ عَنْ أَقارِبِهِ وجِيرانِهِ وأَصْحابِهِ[7]، يعني بقوله جلَّ ثناؤه: ﴿مَن كَانَ مُخْتَالًا﴾: إنَّ الله لا يحبُّ من كان ذا خُيَلاء، و(المختال): المُفْتَعِلُ، من قولك: خَالَ الرَّجُلُ، فهُوَ يَخُولُ خَوْلًا وخَالًا"[8]، وقيل: "المُختال: الصَّلِفُ التيَّاه الجهولُ، وإنَّما ذُكر الاختيالُ في هذه القصَّة؛ لأنَّ المختال يأنف من ذوي قرابَاتِه؛ إذا كانوا فقراءَ، ومن جيرانه؛ إذا كانوا كذلك، فلا يُحْسِنُ عِشْرتَهم"[9].

5) ﴿فَخُورًا﴾: من الفَخْرِ، وهو المُباهاةُ في الأَشْياءِ الخارِجَةِ عَنِ الإِنْسانِ كالمالِ والجاهِ[10]، والتَّفَخُّرُ: التَّعظُّمُ والتَّكبُّرُ، والتَّمَدُّحُ بِالخِصال، وعَدُّ القَديمِ مِنَ الفِعال[11]، وأَصْلُ فخَرَ: يَدُلُّ عَلَى عِظَمٍ وقِدَمٍ[12]، والمعْنى هنا: كَثير الافْتِخارِ عَلَى النَّاسِ بِمَناقِبِهِ، يُعدِّدُها كِبْرًا وتَطاوُلًا[13]، وعَنِ الْحَسَنِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ: " ثَلاثٌ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لا يَدَعُهُنَّ النَّاسُ: الْفَخْرُ فِي الأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ، وَالاسْتِسْقَاءُ بِالأَنْوَاءِ"[14].

(1) الخازن، لباب التّأويل في معاني التّنزيل: 1/106.
(2) الخازن، لباب التّأويل في معاني التّنزيل: 1/106.
(3) ابْنُ سيده، المُخَصَّص: 3/400.
(4) ابْنُ الأَثِير، النِّهايَةُ في غَرِيبِ الحَديثِ والأَثَر: 2/93.
(5) الجَوْهَرِيُّ، الصّحاح: (خَيَلَ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خَيَلَ).
(7) الكفوي، الكُلّيّاتُ، ص: 885.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 8/349.
(9) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/51.
(10) الراغب، المفردات: (فَخَرَ).
(11) الجَوْهَرِيُّ، الصّحاح: (فَخَرَ)، وابن سيده، المحكم: (فَخَرَ).
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فَخَرَ).
(13) ابْنُ الهائِمِ، التِّبْيانُ في تَفْسِيرِ غَرِيبِ القُرْآنِ، ص: 139، ومُحَمَّد الخَضيري، السِّراجُ في بَيانِ غَرِيبِ القُرْآنِ، ص: 32.
(14) يحيى بن سلّام، تفسير يحيى بن سلّام: 1/486، وص: 32.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

مِـنَ الإِحْـسـانِ مُعامَلَةُ الخالِقِ بـالـعـبـوديَّـة، ومُـعـامَـلَـةُ المَـخـلـوقـات بالإنسانيَّة

تؤكِّد الآية على عبادة الله وحْدَهُ بالانْقيادِ لَهُ، ولا تَعْبُدوا مَعَهُ سِواهُ، وأَحْسنوا إلى الوالِدَيْنِ بإِكْرامِهما وبِرِّهما، وأَحْسنوا إلى الأَقارِبِ واليَتامى والفُقَراءِ، وأَحْسنوا إلى الجارِ القريب، والجارِ الغريب، وأَحْسِنوا إلى الصَّاحِبِ المُرافِقِ لَكُمْ من زوجة مرافقة في الحياة، أو أيِّ مصاحب في الأعمال والأسفار وأداء الواجبات، وأَحْسِنوا إلى المُسافِرِ الغَريبِ الَّذي انْقَطَعَتْ بِهِ السُّبُلُ، وإلى المَماليكِ مِنْ فِتْيانِكُمْ وفَتَياتِكُمْ، إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ مُعْجَبًا بِنَفْسِهِ، مُتَعاليًا على النَّاسِ، كَثيرَ التَّمَدُّحِ لنَفْسِهِ[1]، مُبالغًا في المفاخرة، ومُوغلًا في المكاثرة.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبةُ الجمعِ بين الأمر والنَّهي في قوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾:

الأَمْرُ بالعِبادَةِ والنَّهْيُ عَنِ الشِّرْكِ بِطَريقٍ يُشْبِهُ القَصْرَ لتَرْسيخِ التَّوْحيدِ وتَجْديدِ مَعْناهُ في نُفوسِ المُسْلِمينَ.

فلمَّا كانَ الخِطابُ لِلْمُؤْمِنينَ، وكانَ الغرضُ تجديدَ العبادة ودوامَها والثَّبات عليها؛ قَدَّمَ الأَمْرَ بعبادةِ اللهِ عَلَى النَّهْيِ عَنِ الإِشْراكِ به سبحانَه، فهو بمنزلةِ الأمرِ بالإخلاصِ في العبادة؛ لِأَنَّ مَنْ عَبَدَ مَعَ اللهِ غَيْرَهُ كَانَ مُشْرِكًا، وَلَا يَكُونُ مُخْلِصًا.

نكتةُ العدولِ من الإيجاز إلى الإطناب في قولِ تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾:

مَجْموعُ الجُمْلَتَيْنِ في قُوَّةِ صيغَةِ القَصْرِ؛ لاشتمالهما على مَعْنى إِثْباتٍ ونَفْيٍ، كَأَنَّهُ قيلَ: لا تَعْبُدوا إِلَّا اللهَ، وعَدَلَ هُنا عَنِ أُسْلوبِ

(1) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الْأَزْهَرِ، الْمُنْتَخَبُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرآنِ الكَرِيمِ، ص: 114، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسِيرِ، التَّفْسِيرُ الْمُيَسَّرُ، ص: 84، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسِيرِ، المُخْتَصَرُ فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ الكَرِيمِ، ص: 84.

القَصْرِ إلى الإطنابِ؛ لِأَنَّ المَقامَ مقامُ خِطابٍ لِأَهْلِ الإيمانِ، فالغَرَضُ الأَوَّلُ: هوَ طلبُ تجديدِ العبادةِ وتوثيقِها والاستزادةِ منها، ثُمَّ قصدَ بَعْدَ ذَلِكَ إفرادَه حينَ لا يشركون معه في التَّذلُّل شيئًا، أي: نَفيَ الحُكْمِ عَمَّا عَدا المُثْبَتَ لَهُ، كما أنَّه بسببِ مقامِ الإطنابِ أفاد حصولَ الأَمرِ بالعبادة، والنَّهي عن الإشراكِ مرَّتين، بالمطابقة وباللُّزوم، ففيه معنى: التَّأكيدِ والتَّقرير، فإنَّه يلزمُ من الأمر بعبادةِ اللهِ النَّهيُ عن الإشراكِ به، كما يلزمُ من النَّهي عن الإشراكِ باللهِ الأمرُ بعبادته، وإذا جِيْءَ بالقَصْرِ؛ كانَ المَقْصدُ الأَوَّلُ هوَ نَفْيَ الحُكْمِ عَمَّا عَدا المَذْكورَ، وذَلِكَ على خلافِ مُقْتَضَى المقامِ هُنا، ولِأَجْلِ ذَلِكَ لَمَّا خُوطِبَ بَنو إسْرائيلَ بِنَظيرِ هَذِهِ الآيَةِ خُوطِبوا بِطَريقَةِ القَصْرِ في قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البَقَرَة: 83] الآيَةَ؛ لِأَنَّ المَقْصودَ الأَوَّلَ إيقاظُهُمْ إلى إبْطالِ عِبادَةِ غَيْرِ اللهِ؛ لِأَنَّهُمْ قالوا لِموسَى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، ولِأَنَّهُمْ عَبَدوا العِجْلَ في مُدَّةِ مُناجاةِ موسَى رَبَّهُ، فأَخَذَ عَلَيْهِمُ الميثاقَ بالنَّهْيِ عَنْ عِبادَةِ غَيْرِ اللهِ[1].

الأمـرُ بتجديدِ عبـادةِ اللـه والاسـتـزادةِ منـها، والنَّـهي عـنِ الإشـراكِ باللهِ مطلقًا

براعةُ التَّرتيب في المعاطيف في الآية:

لَمَّا أمر اللهُ بعبادته، والنَّهي عن الإشراكِ به، فصارَ المأمورُ بذلك مخلِصًا في عبادته؛ أمرَه بالإحسانِ في خلافته، وبدأ بأولى النَّاس بذلك، وهو مَنْ جعلَه سببًا لإيجاده، فقالَ مشيرًا إلى أنَّه لا يرضى له مِنْ ذلك إلَّا درجةَ الإحسانِ: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، ثمَّ ذكرَ أهلَ الصِّلةِ، وبدأ بقولِه: ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾؛ لتأكُّدِ حقِّهم بمزيدِ قربِهم، ثمَّ أتبعَ ذلكَ مَنْ تجبُ مراعاتُهُ للهِ، أو لمعنى: تفسُدُ بالإخلالِ به ذاتَ البَينِ، وبدأ بما للهِ؛ لأنَّه إذا صحَّ؛ تَبِعَهُ غيرُهُ، فقال: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، أي: لأنَّ له حقَّين: ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾، أي: الجارِ الَّذي لا

الـــوالـــدانِ أولـــى الـنَّـاسِ بالإحسانِ

(1) البسيلي، نكت وتنبيهات: 2/163، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/48.

قرابةَ لهُ، ثمَّ قال: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ﴾، فذكرَ الرَّفيقَ والصَّاحبِ بالجنبِ ممَّنْ له مخالطةٌ في أمرٍ من الأمورِ الموجبَةِ لامتدادِ العشرةِ، ثمَّ ذكرَ الغريبَ الَّذي لا معرفةَ لكَ به، فقالَ: ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، أي: المسافر لِغربتِهِ وقلَّةِ ناصره ووحشتِهِ، ثمَّ قال: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ﴾، أي: من العبيدِ والإماءِ وغيرِهما كذلكَ، فإنَّ الإحسانَ إليهم طاعةٌ عظيمةٌ[1].

مناسبةُ التَّنكيرِ في سياقِ النَّهي في قوله: ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾:

النَّهيُ عَنِ الشِّرْكِ مِنْ كُلِّ نَواحيهِ وبِشَتَّى طُرُقِهِ

لَمَّا كانَ ﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾ نكرةً في سياق النَّهي؛ دلَّ على العموم، والمعنى يتنوَّع على وفق دلالة ﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾ في السِّياق، فإذا كان منصوبًا عَلَى المَفْعوليَّةِ لِـ ﴿تُشۡرِكُواْ﴾، فالمعنى على النَّهي عن الإشراك باللهِ أيَّ أحدٍ ممَّا يعبَدُ صَغيرًا كانَ أَوْ كَبيرًا، عَظيمًا أَوْ حَقيرًا، مِنْ غَيْرِ فرْقٍ بَيْنَ حَيٍّ ومَيِّتٍ وجَمادٍ وحَيَوانٍ، فيتناول كلَّ ما يطلقُ عليه شيء: الَّذي هو من الألفاظ الَّتي تجري على كلِّ الذَّوات، لا يغادر منها شيءٌ، فيَكونُ بِهذا المَعْنى كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ۝٢﴾ [الجنّ: 2]، وإذا كانَ منصوبًا عَلى المَصْدَريَّةِ لِلتَّأْكيدِ؛ فالمعنى: لاتشركوا أَيَّ شَيْءٍ مِنَ الإِشْراكِ خَفِيًّا كانَ أَوْ جَلِيًّا، مِنْ غَيْرِ فرْقٍ بَيْنَ شِرْكٍ أَكْبَرَ وأَصْغَرَ[2].

بلاغة التَّعبير في قوله: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾:

الاهْتِمامُ بِشَأْنِ الوالِدَيْنِ وتَعْظيمُ بِرِّهِما

أفادت الجملة الأمر عن طريق المصدر النَّائب عن فعل الأمر، وقدَّره بعضهم بـ (وأحسنوا إلى الوالدين إحسانًا)، ولو جاء على هذا النَّظم؛ لم يدلَّ على الأمر بتمامِ الإحسانِ إليهما، فإنَّ تقديم ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ﴾ - سواءٌ أكانَ عن تأخير في أصلِ وضعه أم أنَّه في أصل وضع العبارة لا يكون إلَّا مقدَّمًا - يفيدُ الاهتمامَ والتَّخصيصَ بمعنى: وَأَحْسِنُوا بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا تَامًّا لَا تُقَصِّرُوا فِي شَيْءٍ مِنْهُ،

(1) البِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/276 - 277.

(2) البِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/276، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/154.

فيكونُ الإحسانُ إلى الوالدين فيه مزيد اهتمام وتخصيص بأنواعِ الإحسانِ ومراتبه حتَّى يصلَ إلى التَّمام، ولمَّا كان الإحسان يتعدَّى إلى متعلَّقه بـ (الباءِ واللَّام وإلى)؛ إذْ يُقَالُ: أَحْسَنَ بِهِ، وَأَحْسَنَ لَهُ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ، كانت التَّعديةُ بالباء الَّتي للإلصاق أَبْلَغَ؛ لِإِشْعَارِهَا بِإِلْصَاقِ الْإِحْسَانِ بِمَنْ يُوَجَّهُ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ إِشْعَارٍ بِالْفَرْقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُحْسِنِ، وَالتَّعْدِيَةُ بِـ (إِلَى أو باللَّام) تُشْعِرُ بِطَرَفَيْنِ مُتَبَاعِدَيْنِ يَصِلُ الْإِحْسَانُ مِنْ أَحَدِهِمَا إِلَى الْآخَرِ، كما أنَّ الإحسانَ إذا عُدِّيَ بالباءِ دَلَّ على مُعامَلَةِ الذَّاتِ وتَوْقيرها وإكْرامِها، وهوَ مَعْنَى البرِّ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾، وإذا أُريدَ بِهِ إيصالُ النَّفْعِ المالِيِّ عُدِّيَ بِـ "إلى"، فيُقالُ: أَحْسَنَ إِلَى فُلانٍ، إذا وصَلَهُ بِمالٍ ونَحْوِه، والتَّعدية بالباء فيها معنى العطف، ويحتمل أنْ تكونَ التَّعدية بالباء على تضمين الإحسانِ معنى البرِّ؛ ليكونَ من تكثيرِ المعنى، وأفاد تنكير ﴿إِحْسَٰنًا﴾ التَّعظيم.[1]

نكتة تخصيصِ الوالدين في الذِّكرِ من سائر الأقارب:

أقربُ القراباتِ قرابةُ الوالدَيْنِ وبسببِهما تنشأُ سَائِرُ القراباتِ

لَمَّا كانَ الْوَالِدَانِ مِنَ الْأَقَارِبِ -أَيْضًا- أفادَ أنَّ تخصيصَهما في الذِّكرِ وتقديمهما، فيه نكتةٌ، وهي أنَّه لَمَّا كَانَتْ قرابةُ الوالدين مَخْصُوصَةً بِكَوْنِهَا أَقْرَبَ الْقَرَابَاتِ، وَكَانَتْ مَخْصُوصَةً بِخَوَاصَّ لَا تَحْصُلُ فِي غَيْرِهَا، فمنهما تنشأ سائر القرابات - لَا جَرَمَ - مَيَّزَهَا اللهُ تَعَالَى فِي الذِّكْرِ مِنْ سَائِرِ الْأَنْوَاعِ، فَذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَرَابَةَ الْوالدَين، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِقَرَابَةِ الرَّحِمِ[2].

دَلالَةُ التَّعْريفِ بِالإِضافَةِ في: ﴿وَبِذِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾:

التَّنْويهُ بِشَأْنِ جَميعِ الأَقارِبِ وتَأْكيدُ الإِحْسانِ إِلَيْهِمْ

أتى بـ (ذي) ليشمل جَميعَ الأَقارِبِ، لنكتة الإضافة إلى المصدر، فكلُّ من له صلة القربى داخِلٌ في وُجوبِ الإِحْسانِ لَهُ على الإِطْلاقِ، وفيه اختصار عن تَفْصيلِ ذِكْرِهِمْ وأَنْواعِ قَرابَتِهِمْ، فأفاد الاختصار التَّعميمَ.

---

(1) ابْنُ التَّمْجيدِ الحَنَفيُّ، حاشيَةُ ابْنِ التَّمْجيدِ على البَيْضاويّ: 7/154، ورشيد رضا، تفسير المنار: 5/68، وابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 5/48.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/76، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/695، وابْنُ التَّمْجيدِ الحَنَفيُّ، حاشيَةُ ابْنِ التَّمْجيدِ على البَيْضاويّ: 7/154.

دلالةُ إعادةِ حرفِ الجرِّ في قولِه: ﴿وَبِذِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾:

تأكيدُ الإحسانِ لذي القربى

يحتمل أنْ تكونَ إعادةُ حرفِ الجرِّ؛ لتأكيدِ الإحسانِ لذي القربى، لِما قد يقعُ من بعضِهم من الاستخفافِ بالقريب؛ لأنَّه قريبُه، فيصرفُ برَّه وإحسانَه إلى الأباعدِ؛ ليستكفيَ شرَّهم، أو ليُذكَرَ بينَ النَّاسِ بالذِّكرِ الحسَنِ، ويحتمل أنْ يكونَ لإفادةِ التَّنويعِ، فَإِنَّ الْإِحْسَانَ بِالْوَالِدَيْنِ غَيْرُ الْإِحْسَانِ بِالْأَقْرَبِينَ؛ إِذْ يَجِبُ لِلْوَالِدَيْنِ مِنَ الرِّعَايَةِ وَالتَّكْرِيمِ وَالْخُضُوعِ مَا لَا يَجِبُ لِغَيْرِهِمَا، وأيضًا لِلْإِشارَةِ إلى أَنَّ الإحْسانَ إلى القَرابَةِ مُسْتَقِلٌّ، بمعْنى: أنَّهُ لوْ فُرِض أَنَّ الرَّجُلَ لَيْس لَهُ والِدانِ، فحَقُّ القَرابَةِ ثابِتٌ، ولَيْسَ مَبْنِيًّا على حَقِّ الوالِدَيْنِ، وتابِعًا لَهُ؛ لِأَنَّ الوالِدَيْنِ قَدْ يَكونانِ ميِّتيْنِ، فحَقُّ القَرابةِ باقٍ[1].

مناسبةُ تكريرِ الباءِ في هذهِ الآيةِ دونَ آية البقرة:

وقَدْ تَكَرَّرَ حَرْفُ الجَرِّ هنا، ولَمْ يَتَكَرَّرْ في حِكايَةِ وَصِيَّةِ بني إسْرائيلَ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [البَقَرَة: 83]، للتَّوْكيدِ والمُبالَغَةِ، فبُولِغَ في هَذِهِ الآيَةِ؛ لِأَنَّها في حَقِّ هَذِهِ الأُمَّةِ، ولَمْ يُبالَغْ في حَقِّ تِلْكَ؛ لِأَنَّها في حَقِّ بَنِي إسْرائيلَ، والاعْتِناءُ بِهَذِهِ الأُمَّةِ أَكْثَرُ مِنَ الاعْتِناءِ بِغَيْرِها؛ إِذْ هيَ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، ولِأَنَّ الإسْلامَ أَكَّدَ أَواصِرَ القَرابَةِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ[2].

تأكيدُ المناسبة في تقْديمِ اليَتامى على المَساكينِ في قولِه: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾:

الأَوْلَوِيَّةُ لليَتامى على المَساكينِ في بابِ الإحْسانِ

قدَّمَ اللهُ اليَتيمَ على المِسْكينِ؛ لِأَنَّهُ أَضْعَفُ، وبالإحْسانِ والرِّفْقِ أَوْلى؛ لِأَنَّهُ يَضْعُفُ عَنْ دَفْعِ حاجَتِهِ ورَفْعِها إلى غَيْرِهِ لِصِغَرِ سِنِّهِ[3]، أَمَّا المِسْكينُ؛ فيُمْكِنُهُ أَنْ يَعْرِضَ حالَ نَفْسِهِ على غَيْرِهِ، فيَجلِبَ بِهِ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/631، ورشيد رضا، تفسير المنار: 5/74، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/49.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/631، والقِنَّوْجيُّ، فتْحُ البَيانِ في مَقاصِدِ القُرآن: 3/112.
(3) البِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/276.

نَفْعًا، أَوْ يَدْفَعَ بِهِ ضَرَرًا[1]، كَما أَنَّ اليَتيمَ لِانْكِسارِ نَفْسِهِ بِفَقْدِ والِدِهِ أَحْوَجُ مِنَ المِسْكينِ إلى الإِحْسانِ والمعامَلَةِ الرَّقيقَةِ.

دلالةُ المغايرةِ في التَّعبير بين قوله: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وقوله: ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾:

لَمَّا كان الجارُ الأَجْنَبيُّ الَّذي لا قَرابَةَ بَيْنَهُ وبَيْنَ جارِهِ يَحْتاجُ إلى مَزيدِ عِنايَةٍ؛ حَذَفَ المُضافَ، فلَمْ يَقُلْ: (ذي الجُنُبِ)؛ ليَكونَ وصْفًا عَلَى سَبيلِ المُبالَغَةِ، فجَمَعَتْ هذهِ الجُمْلَةُ بَيْنَ إِطْنابٍ وإيجازٍ في سياقٍ واحِدٍ، فأذنت بتَعْظيمِ حَقِّ الجارِ، والاعْتِناءِ بِهِ، والاهْتِمامِ بِشَأْنِهِ.

دلالة الباء في قوله: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾:

تفيد الباء معنى: الملابسة، والكلامُ على الكنايةِ؛ ليشمل كلَّ من له صحبةٌ أو رفقةٌ في أمر حسنٍ كتعلُّمٍ وتصرُّفٍ وصناعةٍ وسفرٍ، فإنَّه صحِبَك، وحصل بجانبِك، ومنهم من قعد بجنبِك في مسجدٍ أو مجلسٍ أو غيرِ ذلك مِنْ أدنى صحبةٍ التَأَمَتْ بينك وبينه.[2]

السِّرُّ في التَّعْبيرِ بِابْنِ السَّبيلِ بَدَلَ الغَريبِ في: ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾:

اللَّطْفُ بِهِ ومُراعاةُ حالِهِ وحاجَتِهِ

فابْنُ السَّبيلِ في الغالِبِ يَكونُ مُحْتاجًا، فإنْ قُدِّرَ انْتِفاءُ حاجَتِهِ بِغِناهُ، ولَمْ يَكُنْ فقيرًا، فهوَ مُحْتاجٌ إلى مَنْ يَدُلُّهُ على ما فيهِ مَصالِحُهُ لِغُرْبَتِهِ وعَدَمِ مَعْرِفَتِهِ بِالْبِلادِ الَّتي نَزَلَ بِها، كإِرْشادِهِ والتَّرَفُّقِ بِهِ وتَلْيينِ القَوْلِ لَهُ وتَأْمينِ رَوْعَتِهِ ومُساعَدَتِهِ في حاجيّاتِهِ، فالإِحْسانُ إِلَيْهِ باقٍ.

بلاغة المجاز في قوله: ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾:

تَسْمِيَتُهُ بِابْنِ السَّبيلِ لِمُلازَمَتِهِ الطَّريقَ، مِثْلَ: لُزومِ الوَلَدِ لِوالِدَتِهِ، وهذا مِنَ المَجازِ العَقْليِّ، ووَجْهُهُ وعَلاقَتُهُ مِنْ بابِ تَسْمِيَةِ الحالِّ باسْمِ المَحَلِّ، وذَلِكَ لِكَوْنِ المُسافِرِ مَوْجودًا في السَّبيلِ[3]، ولَعَلَّ في نِسْبَتِهِ إلى السَّبيلِ بَيانًا لِخِفَّةِ مُؤْنَتِهِ، فهوَ ضارِبٌ في الأَرْضِ، ولَيْسَ

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/76.

(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/176، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/156.

(3) ابْنُ عُثَيمين، تَفْسيرُ ابْنِ عُثَيْمين: 1/311.

قاصِدًا المُكوثَ والتَّطْويلَ في المَوْضِعِ الَّذي نَزَلَ فيهِ، وهَذا مَعْنًى يُنَشِّطُ النُّفوسَ لِخِدْمَتِهِ والعِنايَةِ بِهِ، واللهُ أَعْلَمُ.

السِّرُّ في التَّعْبيرِ بِمُلْكِ اليَمينِ بَدَلَ العَبيدِ والإماءِ في: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾:

بَيانٌ لِضَعْفِ حالِهِم وحَثٌّ على مَزيدِ التَّلَطُّفِ بِهِم:

فإِسْنادُ المُلْكِ إلى اليَمينِ عِنْدَ العَرَبِ مِنَ المَجازِ العَقْليِّ[1]، والغَرَضُ مِنْ هذا المَجازِ تَصْويرُ هذهِ الفِئَةِ مِنَ النَّاسِ بِصورَةِ الأَسيرِ الضَّعيفِ الَّذي لا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ شَيْئًا، بَلْ هوَ مَمْلوكٌ لِغَيْرِهِ، وفي هذا حَثٌّ على التَّلَطُّفِ بِهِم والإِحْسانِ إِلَيْهِمْ.

دلالة (ما) في قوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾:

جاء بـ (ما) الَّتي لغير العاقل حملًا على الأنواع والأوصاف.[2]

حسنُ التَّذييل في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾:

الإشْعارُ بِذَمِّ الفَخْرِ والخُيَلاءِ ومَنِ اتَّصَفَ بِهِما

أوّلاً: في جملة التَّذييل تهديدٌ ووعيدٌ لمن يتَّصف بهذين الوصفين القبيحين.[3]

ثانيًا: أفادت ﴿إِنَّ﴾ تأكيد مضمونِ الجملة لرعايةِ الاهتمامِ بمضمونِ الإسناد.

ثالثًا: كما أفادت ﴿إِنَّ﴾ المبادرةَ إلى الامتثال للإحسانِ لجميع من تقدَّمها؛ لأنَّها جاءت في مقام التَّعليلِ[4] ببيان أنَّ من لم يمتثلِ إنَّما هو لكونه مُخْتالًا فخورًا، فدلَّ على منافاة الإحسان لِلاختيالِ والتَّفاخُرِ.

رابعًا: دلَّت الجملةُ الاسميَّةُ على ثباتِ مضمونِ الجملةِ ودوامِهِ.

خامسًا: لَمَّا جاءَ الخبرُ فعلًا في قولِه: ﴿لَا يُحِبُّ﴾؛ أفادَ تقويةَ

(1) سَبَقَ التَّعْريفُ بِه.
(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 3/676.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/51.
(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/176.

الحكم وتأكيدَه؛ ليجتمع معَ تأكيدِ ﴿إِنَّ﴾، ومجيءِ الجملة اسميَّةً، كما دلَّ الإخبارُ بالفعلِ على تجدُّدِ انتفاءِ حبِّه تعالى، كلَّما اتَّصفَ بهما أحدٌ، أو ظهرت آثارُ الاتِّصافِ بينَ النَّاس.

سادسًا: أفادَ النَّفيُ بـ﴿لَا﴾ استمرارَ انتفاءِ حبِّ اللهِ تعالى لِمَنْ يتَّصفُ بهذينِ الوصفين.

سابعًا: أفادَ التَّعبير بـ﴿مَن﴾ المبالغةَ في العموم؛ ليشملَ انتفاءَ محبَّةِ اللهِ لكلِّ مَنِ اتَّصفَ بهذينِ الوصفين، وإنْ كانَ الاتِّصافُ قليلًا.

ثامنًا: دلَّ التَّعبير بالاسمِ الموصول ﴿مَن﴾ على أنَّ الاتِّصافَ بالاختيالِ والافتخارِ هما سببُ انتفاءِ محبَّةِ اللهِ.

تاسعًا: أفادَ تعبيرُ ﴿كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ ذمَّ الوصفين وقبحَهما وذمّ الاستمرارِ في الاتِّصاف بهما، وظهور آثارهما في النَّاس.

عاشرًا: جمعَ بينَ وصفينِ هما: ﴿مُخْتَالًا﴾و﴿فَخُورًا﴾، ولمَّا كانَ المختالُ هو الْمُتَكَبِّرَ الَّذي تمكَّنتْ من نفسِه ملكةُ الكبر، وجاء على صيغةِ اسمِ الفاعلِ بمعنى: أنَّه وصفٌ ثابتٌ؛ أشعرَ بأنَّه مذمومٌ في أصلِه وفي الزِّيادةِ عليه، ولمَّا كانَ ﴿فَخُورًا﴾ صيغةَ مبالغةٍ؛ أشعرَ أنَّه مذمومٌ على جهةِ المبالغةِ؛ إذا خرجَ عن حدِّه، أي: بأنْ يتفاخرَ على أقاربِه وعلى النَّاسِ، وأنْ يعدِّدَ مناقبَه كِبرًا، وبما ينافي الإحسانَ المأمورَ به، فإنْ عدَّها اعترافًا كان شكورًا، ولهذا جازَ الفخرُ على سبيلِ التَّحدُّثِ بالنِّعَم[1].

الحادي عشر: تشعرُ جملةُ التَّذييلِ بأنَّ مَنِ اتَّصَفَ بِالإحسانِ قد يَجِدُ في نَفْسِهِ زَهْوًا وَخُيَلَاءَ، وَافْتِخَارًا بِمَا صَدَرَ مِنْهُ، فَأَرَادَ تَعَالَى أَنْ يُنَبِّهَ عَلَى التَّحَلِّي بِصِفَةِ التَّوَاضُعِ، وَأَلَّا يختالَ عَلَى مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ، وَأَلَّا يَفْخَرَ عَلَيْهِ، أي: وَلَا تَخْتَالُوا، وَتَفْخَرُوا عَلَى مَنْ أَحْسَنْتُمْ إِلَيْهِ[2]، ﴿إِنَّ ٱللَّـهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾.

الثاني عشر: جمعَ بينَ المختالِ والفخورِ مِنْ دونِ عطفٍ، ولمْ يَرِدَا في القرآنِ إلَّا كذلكَ للإشعارِ بمقاربةٍ في معنى الوصفينِ وفي آثارِهما، وبأنَّ الاختيالَ سببٌ في الافتخار.

الثالث عشر: لَمَّا كانتْ جملةُ التَّذييلِ على معنى العمومِ والكلِّيَّةِ؛ كانت بمنزلةِ المَثَلِ في حكايتِها والتَّمثيلِ بها.

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 1/357، والنيسابوري، غرائب التفسير: 2/402.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/634.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العِبادَة والطَّاعَة:

الطَّاعَةُ: هيَ الفعلُ الواقِعُ عَلى حَسَبِ ما أَرادَهُ المُريدُ، مَتى كانَ المُريدُ أَعلَى رُتْبَةً مِمَّنْ يَفْعَلُ ذَلِك، وتَكونُ لِلْخالِقِ والمَخْلوقِ[1]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النِّساء: 59]، والعِبادَةُ: هيَ تَعْظيمُ اللّهِ تَعالَى بأَمْرِه، بِشَرْطِ النِّيَّةِ ومَعْرِفَةِ المَعْبودِ، ولا تَكونُ إِلَّا لِلْخالِقِ، قال تَعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذّاريات: 56]، فالعِبادَةُ حَقُّ اللّهِ وحْدَهُ، أَمَّا الطَّاعَةُ؛ فهيَ مُطْلَقُ امْتِثالِ الأَمْرِ والنَّهْيِ، فالطَّاعَةُ أَمْرُها واسِعٌ[2]، وما ثبت بالتَّواتر أنَّ عيسى - عليه السلام - كان عظيم الرَّغبة في العبادة والطَّاعة لله - تعالى - ولو كان إلهًا؛ لاستحال ذلك؛ لأنَّ الإله لا يَعْبُدُ نفسه"[3]، وَالدِّينُ: الْعِبَادَةُ وَالطَّاعَةُ، وَرَأْسُهَا تَوْحِيدُ اللّه، وَأَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ[4]، وهو تعالى "لا معبود بحقٍّ سواه، فهو الإله الحقُّ الَّذي تتعيَّن أن تكون جميع أنواع العبادة والطَّاعة والتَّألُّه له تعالى، لكماله وكمال صفاته وعظيم نعمه"[5].

الإِحْسان والبِرّ:

الإِحْسانُ: إِعْطاءُ الحَسَنَةِ وفِعْلُ الخَيْرِ، قالَ تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النَّحل: 90]، وقالَ: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ﴾ [الأَحْقاف: 15]، يقال: رجل حسن، وامرأة حسنة، يقال: صدق فلان وبرَّ، وبرَّت يمينه: صدقت، وأبرَّها: أمضاها على الصِّدق، ومن هذا الباب قولهم: يبرُّ قرابته، وأصله: الصِّدق في المحبَّة، يقال للرَّجل: بارٌّ، وبررت والدي، وبررت في يميني[6]، والبِرُّ: الاتِّساعُ في الإِحْسانِ وفِعْلِ الخَيْرِ[7]، فالبِرُّ: أَعْلى دَرَجَةً مِنَ الإِحْسانِ، قال تَعالى في وصْفِ نَبيِّهِ يَحيى عليه السلام: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ [مَرْيَم: 14]، وفي وصْفِ عيسى عليه السلام: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾ [مَرْيَم: 32]، وقوله تعالى: ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: 212]، " يَعْنِي: أَنَّ

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 221.
(2) زَكَريّا الأَنْصاريُّ، الحُدودُ الأَنيقَةُ والتَّعْريفاتُ الدَّقيقَةُ، ص: 77.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 8/246.
(4) الشّوكاني، فتح القدير: 4/515.
(5) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان: 1/110.
(6) مناهج جامعة المدينة العالمية، التفسير الموضوعي، ص: 45.
(7) الراغب، المفردات: (بَرَرَ).

أَصْلَ الْإِحْسَانِ وَالْبِرِّ عَامٌّ، فِي حَقِّ كُلِّ الْعِبَادِ، وَذَلِكَ هُوَ الْإِحْسَانُ بِالْحَيَاةِ وَالْعَقْلِ وَالْفَهْمِ، وَإِعْطَاءِ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ مِنَ الرِّزْقِ، وَدَفْعِ أَكْثَرِ الْآفَاتِ وَالْبَلِيَّاتِ عَنْهُمْ، فَأَمَّا مَرَاتِبُ الْعَطِيَّةِ وَالْبَهْجَةِ؛ فَمُتَفَاوِتَةٌ مُخْتَلِفَةٌ"[1].

الصَّاحِب والصَّديق:

الصَّاحِبُ: مِنَ الصُّحْبَةِ في الزَّمانِ والمَكانِ، وقَدْ تَكونُ صُحْبَتُهُ مُؤَقَّتَةً في الطَّريقِ، مِثْلَ: العَبْدِ الصَّالِحِ مَع موسى: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي﴾ [الكَهْف 76]، أَوْ في مَكانٍ، مِثْلَ: يوسُفَ مَعَ صاحِبَيْهِ في السِّجنِ: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٣٩﴾ [يوسُف 39]، وفي الجاهليَّة قال الشَّاعر امرؤ القيس:

بَكَى صَاحِبِي لَمَّا رَأَى الدَّرْبَ دُونَهُ *** وَأَيْقَنَ أَنَّا لاحِقَانِ بِقَيْصَرَا

فَقُلْتُ لَهُ: لا تَبْكِ عَيْنُكَ إِنَّمَا *** نُحَاوِلُ مُلْكًا أَوْ نَمُوتَ فَنُعْذَرَا[2]

وقَدْ تَكونُ الصُّحْبَةُ مُؤَبَّدَةً، مِثْلَ: الوالِدَيْنِ، قال تَعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لُقمان 15]، ومِثْلَ: الزَّوْجَةِ الَّتي تَصْحَبُ الزَّوْجَ طِيْلَةَ عُمُرِهِ، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦﴾ [عَبَسَ: 36]، أَمَّا الصَّديقُ؛ فمِنَ الصَّداقَةِ: وهيَ اتِّفاقُ الضَّمائِرِ وصِدْقُ الاعْتِقادِ على المَوَدَّةِ[3]، وفي التَّنْزيلِ جَوازُ الأَكْلِ مِنْ بَيْتِ الصَّديقِ، وَعَدَّهُ مِنَ الأَقارِبِ، قال تَعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النُّور 61]، وقالَ تعالى يَصِفُ حالَ المُشْرِكينَ، وهُمْ في النَّارِ يَصْطَرِخُونَ، ويتَحَسَّرُونَ على فَقْدِ الأَصْدِقاءِ: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١﴾ [الشُّعَراء 101]، فمُصْطَلَحُ الصَّاحِبِ أَعَمُّ مِنَ الصَّديقِ، والصَّداقَةُ مِنْ دَرَجاتِ الصُّحْبَةِ.

الطَّريق والسَّبيل والصِّراط:

الطَّريقُ: هوَ كُلُّ ما يَطْرُقُهُ الطَّارِقُ مِنَ النَّاسِ، مُعْتادًا كانَ أَو غَيْرَ مُعْتادٍ[4]، قال تعالى:

(1) الرازي: مفاتيح الغيب: 8/246.

(2) البيتان لامرئ القيس، من ديوانه، ص: 65، من قصيدته الَّتي رويت عنه حال سفره الطَّويل إلى قيصر الرُّوم، مستنصرًا به بعد قتل أبيه، وصاحبه المذكور، هو عمرو بن قميئة اليشكريُّ، وهو الَّذي صحبه إلى قيصر، والدَّرب المشار إليه، هو الطَّريق ما بين طرسوس وبلاد الرُّوم، والمشهور أنَّ قيصر أهداه حلَّة مسمومة مات لمَّا لبسها، وسمِّي ذا القروح لذلك، ينظر ديوان امرئ القيس، ص: 65، وابن جرير، جامع البيان: 16/540، وهامش التَّحقيق.

(3) الراغب، المفردات: (صَدَقَ)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 285.

(4) الكفوي، الكُلِّيَّاتُ، ص: 513.

﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ٧٧﴾ [طه: 77]، والطَّريق: كلُّ ما يطرقه طارق، معتادًا كان أو غير معتاد، فهو الطَّريق، "والطَّريق الموصل إلى البلد يسمَّى: عدلًا، وما لا يوصل إليه يسمَّى: جائرًا، والطُّرق: جمع طريق جمع تكسير، وطرقات: جمع طريق جمع سلامة"[1]، أَمَّا السَّبيلُ؛ فهوَ الطَّريقُ السَّهْلُ؛ وأَغْلَبُ ما يَقَعُ في الخَيْرِ، وقَدْ يَقَعُ في الشَّرِّ، كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٥٥﴾، [الأنعام: 55]، وأَمَّا الصِّراطُ: فهوَ السَّبيلُ الَّذي لا اعْوِجاجَ فيهِ ولا التِواءَ، فالفَرْقُ بَيْنَ الطَّريقِ والسّبيلِ: أَنَّ الطَّريقَ لا يَقْتَضي السُّهولَةَ واعْتِيادَ السُّلوكِ[2]، أَمّا السَّبيلُ مِنَ الطُّرُقِ؛ فهوَ السَّهْلُ المُعْتادُ، والفَرْقُ بَيْنَ السَّبيلِ والصِّراطِ: أَنَّ الصِّراط لا اعْوِجاجَ فيهِ[3]، قالَ اللّه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعام: 161]، فالصِّراطُ أَخَصُّ مِنَ السَّبيلِ، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 153]، والسَّبيلُ أَخَصُّ مِنَ الطَّريقِ[4]، وقَدْ يُطْلَقُ كُلٌّ مِنْهما على الآخَرِ تَوَسُّعًا.

الاِخْتيال والفَخْر:

الاِخْتيالُ: مِشْيَةُ البَطَرِ، والفَخْرُ: ذِكْرُ المَناقِبِ للتَّطاوُلِ بها على السَّامِعِ، فمادّةُ الاِخْتيالِ أَكْثَرُها يَدورُ على زَهْوِ الحَرَكَةِ؛ لِذا سُمِّيَ الحِصانُ: خَيْلًا؛ لِأَنَّهُ يَخْتالُ في مَشْيِهِ، وعِنْدَما يَرْكَبُهُ الفارسُ يَتَبَخْتَرُ بِهِ، فكَلِمَةُ الخُيَلاءِ مِنْ هَذِهِ، فهي حَرَكَةٌ مَرْئِيَّةٌ، قال تَعالى: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨﴾ [لقمان: 18]، أَمَّا الفَخْرُ؛ فهوَ حَرَكَةٌ مَسْموعَةٌ، وهوَ أَنْ يَتَعاظَمَ الإِنْسانُ بِكَلامٍ مُبالَغٍ فيه، فيَحْكِيَ عَمَّا فعَلَهُ، وَيُمَجِّدَهُ ويُعْلِيَ مِنْ شَأْنِهِ[5]، فالمُخْتالُ: مُتَكَبِّرٌ بالفِعْلِ فقطْ، والفَخُورُ: مُتَكَبِّرٌ بالقَوْلِ، أَوْ بالقَوْلِ والفِعْلِ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾؛ لأنَّ الاختيال والفخر من الأوصاف النَّفسيَّة المذمومة[6].

(1) الكفوي، الكليات، ص: 581.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 298.
(3) الكفوي، الكُلِّيّات، ص: 513.
(4) المناوي، التوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 215.
(5) مُحمَّد الخضيري، السِّراجُ في بَيانِ غَريبِ القُرآنِ، ص: 32.
(6) إسماعيل حقّي، روح البيان: 2/207.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع، سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 7 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-59-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 7 : سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-59-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5066600 بتاريخ 2023/03/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»